محمد تيمور

رائد القصة القصيرة

بقلم

عباس خضر

نظم الشعر ، والف المسرحيات والقصص القصيرة وكتب النقد المسرحي ومقالات في الاجتماع والفن والادب ، واشتغل بالصحافه حينا وبالتمثيل قليلا ، وكان في كليهما هاويا لاتدفعه الى الاحتراف حاجة معيشية .

كان في الشعر والنقد والصحافة والتمثيل كسائر معاصريه من الشعراء والنقاد والصحفيين ، وان كان بدعا في التمثيل من حيث مخالفته لاعتبارات طبقته الارستقراطية بنزوله الى خشبة المسرح .

ولكن من المحقق انه كان رائدا في القصة القصيرة العربية الفنية بل كان هو رائدها الاول ، وكان كذلك رائدا في التاليف المسرحي .

ومع ذلك لم تاخذ منه كتابة القصة القصيرة الا بعض الجهد والعناية والوقت ، الى جانب اهتماماته الاخرى في الادب والفن .

وقد فعل كل ذلك في سنوات معدودة لم يمهله القدر بعدها اذ توفي في التاسعة والعشرين من عمره (فبراير سنة ١٩٢١) ، ترك ديوانا من الشعر ومجموعة من القصص القصيرة ومجموعة من المقالات في النقد والاجتماع وثلاث مسرحيات كبيرة مؤلفة ، وقصة طويلة لم يتم كتابتها ومسرحية مقتبسة معصرة ، العشرة الطيبة » .

جمع شقيقه الاصغر « محمود تيمور » كل هذا الانتاج ونشره بعد وفاة صاحبه في ثلاثة مجلدات كبيرة الحجم بعنوان « مؤلفات محمد تيمور » وكان هذا الانتاج ـ ما عدا المسرحيات والقصة الطويلة ـ قد نشر في جريدة « الغور » في الفترات التي كتب فيها .

نشا محمد تيمور في بيئة اسرية تجمع بين امرين كان اجتماعهما غريبا في مثل هذه البيئة ، الامر الاول الغنى والارستقراطية ، والثاني العلم والادب على الطريقة العربية المأثورة . كان والده (احمد تيمور) قد كرس حياته لخدمة اللغة العربية وءمارفها وفنونها . وكان يتردد على مجلسه بعض اعلام الادب والفكر .

وكانت عمته « عائشة التيموريه » شاعرة مشهورة . وفي المقدمة التي كتبها الاستاذ محمود تيمور لمؤلفات شقيقه يقسم حياة الفقيد الى ثلاثة أطوار . « اما حياته الاولى في مصر ففيها تكونت مواهبه ونمت ، وساعدها على هذا النمو البيئة المنزلية ، واما حياته في أوروبا ففيها تفتحت اعينه للتجديد النافع وتشربت نفسه بالديمقراطيه العالية والمساواة واملأ قلبه بالمطامح والآمال ـ آمال الهدم والبناء هدم القديم الرث من المذاهب الاجتماعية كانت او ادبية ، وبناء الصالح النافع من الانظمة والمذاهب الجديدة . وطوره الاخير كان طور العمل ففيه ظهرت كتاباته وروايانه .

دار في الطور الاول بوالده ومن كان يحضر مجالسه من العلماء والادباء ، فكان يطالع كتب الادب العربي ودواوين الشعراء وحفظ معلقة امرىء القيس وقصائد اخرى اختارها له الوالد ، وكان ينظم الشعر وهو طالب في المدرسة الثانوية ، ويكتب مقالات نشر في جريدة « المؤيد » وعلق بالتمثيل فكان يتردد على فرقة الشيخ سلامة حجازي وكون فرقة تمثيلية بالمنزل والف لها ومثل الدور الاول فيها .

ويمثل الطور الثاني في الفترة التي قضاها بأوروبا ، فبعد ان اتم التعليم الثانوي سافر الى برلين ليتعلم الطب ولكنه بعد شهرين انتقل منها الى باريس ليتعلم القانون ، ولم يكن في اعماق نفسه يريد ان يتعلم الطب أو القانون ، كان كل قلبه معلقا بالادب ، ومكث في فرنسا ثلاث سنين وجه كل همه فيها الى قراءة الادب الفرنسي ومتابعة التمثيل هناك ، ولم يتم دراسته للقانون اذ انه لما عاد الى مصر سنة ١٩١٤ ليقضي اجازته السنوية اقفلت الحرب العظمى طريق السفر فلم يستطع الرجوع الى فرنسا .

كانت المدة التي قضاها في فرنسا لمحول الذي حول اتجاهه عن الادب وقلب افكاره ، وتشبع برغبة شديدة في اصلاح الادب والمسرح المصري ، وان اهم فكرة احتفظ بها في رأسه وما زالت تكبر وتتسع ، فكرة تصوير الاداب ، اي أن تكون ذات جنسية مصرية والوان محلية بحتة » .

وكان الطور الثالث من حياة محمد تيمور هو السنوات القليلة التي قضاها في مصر بعد عودته من أوروبا ، وهو طور النضج والانتاج . توافرت له في هذا الطور الثلاثة المشهورة الشباب والفراغ والحدة ... واقصد بالفراغ عدم انشغاله بالدراسة التي يستعد منها الحصول على الشهادات . وقد لحق في هذه الفترة بمدرسة الزراعة العليا ، ولكنه عدل عنها اذ لم توافق دراسة علومها مزاجه الحاد الى الادب والفن .

وكان ثالوث الشباب والفراغ والحدة هنا مدعاة الى الحد والاضاح في المجال الذي ملك مشاعره منذ الصغر . امده الشباب بحماسة عجيبة نحو الادب والفن وتوافر له الوقت ـ على قصر المدة التي احتضرها الموت ـ فتفرغ للكتابة ولم تضطره ضرورة عيش الى الاحتراف ومعاناة بؤس الادباء والفنانين في ذلك الزمان . وهكذا انعكس اثر الثالوث المشهور بالافساد ، فاخرج لنا هذا الاديب الرائد الخالد .

كان قد اتجه بكل مشاعره في وقت من الاوقات الى المسرح تمثيلا وتأليفا ولكن حدث شيء جعله يتجه اتجاها آخر هو الذي يعنينا في هذه الدراسة ، وهو كتابة القصة القصيرة .

ثبت انه عين امينا للسلطان حسين وكان ذلك عقب ان رآه السلطان مرة يقوم بدوره في مسرحية « غرة بنت الخليفة » لابراهيم رمزي على مسرح الاوبرا ·

فقضت عليه رسميات هذه الوظيفة ان يترك المسرح ، فوجه طاقته الى الكتابة وكان مما كتبه في ذلك الحين مجموعة قصصه التي اطلق عليها هذا الاسم « ماوراء الميدان » ·

نشأ في قصر والده بدرب سعادة في حي الحمزاوي بالقاهرة ولكن اسوار القصر لم تمنعه من الاختلاط بأبناء الحي الفقراء ، وكان يتردد على الضيعة فلا يعيش فيها عيش ابناء الذوات مترفعا على الفلاحين ، بل كان يختلط بهم ويصادقهم ، مؤتسيا في هذا وذلك بوالده الذي يقرب اليه بعض اهل الادب والعلم من الفقراء ويفسح لهم في مجالسه

ولما كان في اوروبا لم ينغمس في الشهوات والمتع الحسية اذ انصرف الى الادب والفن المسرحي ، وجذبه ما طالع من التعبير عن الانسان العادي والتعاطف معه وهاله الفارق بين الحياة الاجتماعية هنا وهناك ، فذهب بنفحة ديمقراطية تنبت صالحة فملأت نفسه بالمشاعر والافكار الاصلاحية وحفزته على الثورة الادبية ·

تملكته حمى الفن ممتزجة بحمى الاصلاح ، وشعر بمشكلة الادب في بلاده شعورا قويا ، كانت المشكلة في نظره ـ وكما هي في الواقع ـ ان الادب لايعبر عن البيئة المصرية · كان الادباء فريقين ·

فريق يقلد القدماء في جزالة الاسلوب واستنفاد الطاقة بالعناية وترصيعه بالمحسنات · وفريق يجري لاهثا وراء الغرب ولا يكاد يعمل غير الترجمة وكان يبحث في أدب هؤلاء واولئك عن الشخصية المصرية فلا يجدها ·

وجدها فقط في عملين كبيرين ، هما « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي ورواية « زينب » لهيكل ، تراه ينصح شقيقه محمود بمطالعتهما ، يقول الاستاذ محمود تيمور « في ذلك الوقت كنت استنير في مطالعاتي بهداية شقيقي ، فنصح لي فيما نصح بان أطالع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، فرأيت فيهما لونا يختلف عن اللون الرمزي الروماني الذي كنت غارقا فيه ، لونا واقعيا يهبط بالقارئ من سماوات الخيال العليا حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ـ الى الارض التي نحيا عليها حيث نرى الناس بشرا مثلنا ، على فطرتهم التي خلقوا عليها » ·

كان هذان العملان خطوتين كبيرتين نحو التعبير عن الشخصية المصرية والبيئة المحلية ، كان حديث عيسى بن هشام « أول محاولة ناجحة لتمصير الادب وصبغه باللون المحلي الزاهي ، مع سموه عن الواقعية الساذجة » وكانت رواية زينب « لأول عمل ادبي في القصة المصرية ، يتضمن العناصر الاساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم » ·

وذلك بغض النظر عن النحو الشكلي الذي نحاه المويلحي من حيث الجري على اسلوب المقامات وبغض النظر عن اتجاه هيكل نحو تكوين اللوحات الجميلة والاغراق في العاطفة واغفال المشكلات الحقيقية للفلاح الكادح ، والمرور ببعضها بطريقة عابرة ·

وقد ظهرت الطبعة الاولى من روايه « زينب » سنة ١٩١٢ على خلاف ما يذكر من أنها ظهرت سنة ١٩١٤ ، واستقبلتها مجلة البيان في عدد من اعداد سنة ١٩١٢ بكلمه تقريظ بدأتها هكذا :

« لا نرى في عالم الكتابة في هذا البلد نقصا اعيب ولا عارا افضح من خلونا من الكتاب الروائيين » .

وعلل المحرر ذلك بقلة الملاحظة لدى الكتاب ، ثم دعا الى الكتابة الروائية قائلا « نحن نريد كتابا روائيين يأخذون من حالنا الحاضرة وادوائنا وعللنا وصدا المحافظة على القديم المتأصل في نفوس شيوخنا وبعض شبابنا والحال التي كان عليها آباؤنا وصالحة عاداتهم وفاسدتها ـ موضوعات يصوغونها في اسلوب روائي على مبـــدأ « الرياليزم » ولاصرار في وضع روايات خيالية يرمي كتابها الى مبدأ سام او فـكرة رشيدة يبدؤون بها العواطف ويقومون بها اود الاخلاق . فليس مبدأ « الرومانتزم » في في وضع الروايات باقل عائدة من الروايات القائمة على الحقائق . نقول ذلك وفي يدنا رواية صالحة هي بدء عهد جديد في عالم الكتابة نستقبله بالغبطه والروح . تلكم رواية « زينب » وضعها صاحبها يصف فيها حال الريفيين في طهرهم وعفافهم وسلامة قلوبهم وشريف حبهم وجمود كبارهم وتقوى كهولهم وضعفها مبـــادئ له مصرية ليس فيها الا الرشيد القويم ، مبتعا في ذلك مـذهب ديكنز وبلزاك وتكرى ذلك محمد حسين هيكل » .

ويشيد محرر « البيان » بعمل المؤلف محمد حسين هيكل من حيث انه انكر نفسه فلم يذكر اسمه على الرواية بل كتب عليها «بقلم مصري فلاح» اذ يرى ان هذا عمل وطني مقرون بانكار الذات .

ويدلنا هذه الكلمة على الشعور بالنقص في الانتاج الادبي اذ ذاك ، خلوه من العنصر القصصي ، ودعوة الى استكمال هذا النقص بالطريقة الواقعية (الرياليزم) ولعل هذا مناسبة حر الرواية الرومانسي . والكلمة تقريظ وتحية للمؤلف

وقد انقضى بعد صدور « زينب » خمس سنين لم تنشر فيها على عمل قصصي طويل أو قصير « يتضمن العناصر الاساسية للقصة الحديثة كما نعرفهـــا اليوم ، كما يقول الاستاذ محمود تيمور . وكانت نهاية هذه السنين الخمس في سنة ١٩١٧ حينما ظهرت في جريدة « السفور » قصة « في القطار » لمحمد تيمور ـ وهي ـ حسب استقرائنا ـ أول قصة مصرية حديثة مستكملة للعناصر الاساسية في هـذا الفن . ونلحظ في هذه القصة كما في بقية قصص محمد تيمور الاتجاه الواقعي الخالص . واذا صح هذا فانها تكون أول قصة واقعية متكاملة في ادبنا على الاطلاق .

ويرى الاستاذ محمد يوسف نجم في كتابه « القصة في الادب العربي الحديث في لبنان حتى الحرب العظمى » ان الاديب اللبناني ميخائيل نعيمة سبق محمد تيمور بكتابة قصته القصيرة « الحاقر » اذ يقول

« ولعل خطوة نعيمة في « الحاقر » هي الخطوة التي كان ينتظرها هذا الفن من ادبنا حتى يزدهر ويكتمل فيه شروط الفن الصحيح ، فقد سبق بها نعيمة المحاولات

لاول التي ظهرت على ايدي محمد تيمور ورجال مدرسته كعيسى عبيد وشحاته عبيد وطاهر لاشين ومحمد عزمي وابي شادي ومحمود تيمور وسواهم » .

ويذكر الاستاذ نجم ان قصة « العائر » نشرت سنة ١٩١٥ ولكنه لا يحدد اين نشرت وهي في مجموعة « كان ماكان » التي نشرت مؤخرا .

ويرى العاري، بعد هذا البحث قصة من قصص محمد تيمور هي «في القطار» نعرضها كنموذج لفنه في القصة القصيرة .

نلحظ أولا موضوع الفلاح ومشكلاته ومعاملته وموقفه من الذين يتعالون عليه وموقفهم منه ـ كان الموضوع الاول الذي تناوله بواكير القصص عندنا كما رايبا في اقاصيص عبد الله النديم وقصة منصور فهمي ، وكما في رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل التي كتب على طبعتها الاولى « بقلم فلاح مصري » وعلل ذلك فيما بعد بقوله « وقد دفعني الى اختيار هاتين الكلمتين شعور شاب لا يخلو من غرابة ، وهو الشعور الذي جعلني اقدم كلمة مصري حتى لاتكون صفة للفلاح اذا هي اخرت فصارت ، فلاح مصري » ذلك اني ما قبل الحرب كنت احس كما يحس غيري من المصريين ومن الفلاحين بصفة خاصة بان ابناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لانفسهم حق حكم مصر ينظرون الينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين نظرة ما يجب من الاحترام » فاردت ان استظهر على غلاف الرواية التي قدمتها للجمهور يومئذ والتي قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر واخلاق اهله ان المصري الفلاح يشعر في اعماق نفسه بمكانته وبما هو اهل له من الاحترام وانه لا يأنف من ان يحمل المصرية والفلاحة شعارا يتقدم به للجمهور يتيه به ويطالب باجلاله واحترامه .

كان الفلاح المصري قد قاسى المظالم والآلام من الحكم التركي سواء من الترك انفسهم او من أولئك المتتركين) من المصريين فكان طبيعيا ان يشعر اولئك الكتاب بآلامه ويعصفوا له « حتى ابن الذوات » محمد تيمور الذي شذ عن طبقته للاسباب منشأته التي اشرنا اليه وما ركب في طبعه من نزوع الى الاصلاح ، اصلاح كل شيء في هذا البلد ، وقد قويت عنده هذه النزعة عندما راى الفروق الكبيرة بين الحياة البائسة الفاسدة المتأخرة عندنا وبين الحياة في أوروبا .

وقد سخر محمد تيمور من ابناء الذوات وصور مفاسدهم وتفاهة حياتهم وآمالهم وتعاطف مع الفقراء والكادحين ونرى ذلك في معظم القصص القصيرة التي كتبها واطلق على مجموعتها « ماتراه العيون » وفي قطع قصصية اخرى اسماها « خواطر » وقد نشرت القصص والخواطر في كتاب باسم « ما تراه العيون » بعد سنوات من نشرها في الطبعة الاولى صدر « مؤلفات محمد تيمور » .

ونعود الى قصة « في القطار » فنراه أولا يبدأ بالحديث عن « وهي جميل الصباح والنسيم والحديقة والاشجار ، وهذه آثار الرومانسية السائدة ، ونعرف من هذه المقدمة انه من أصحاب الصباح ومن قراء الادب الفرنسي .

وينتقل بعد ذلك الى القصة ذاتها فيعرض اشخاصها وحوارهم بطريقة تدل على فنه في التأليف المسرحي . وقد اختار نماذج من المجتمع يمثل كل منها قطاعا معينا ، لبعضهم موقف من القضية التي يعرضها كالتركي والطالب والراوي (الكاتب)

والبعض الآخر اما سلبي كالموظف ، أو مداهن جامد كالشيخ المعمم — ورسمهم جميعا رسما واقعيا حيا ، وأجرى الحوار بينهم بلغة فصيحة قريبة من الحديث العادي وان كان قد أتى ببعض كلمات من اللغة الدارجة تجري أمثالها عادة على ألسنة شخصيات القصة مثل « أدب سيس » و « براڤو» وكذلك المثل العام وقام فوجد نفسه دائم مقام . وقد التزم الحوار الفصيح في جميع القصص وان كان قد كتب المسرحيات باللغة العامية . ويقول الاستاذ محمود تيمور في ذلك « وكان رأيه أن يكتب المؤلف بالفصيحة اذا كانت الرواية (بقصد الرواية المسرحية) مصرية عصرية ، وبالعربية الفصحى فيما عدا ذلك كتأليف الروايات العربية والمصرية القديمة (الكلاسيك) وتعريب الروايات من اللغات الاجنبية وهلم جرا . ونظريته هذه غاية في الصواب لان الكاتب (الرياليست) أي المتبع المذهب الحقيقي اذا كتب رواية عصرية باللغة الفصحى كان هذا العمل مخالفا للحقيقة التي ينشدها لان بعده من كتابة هذا النوع من الروايات هو عرض مشاهد حقيقية من الحياة المصرية ، عرض اشخاص يتكلمون بلغتهم ويعيشون في جوهم — عرض حقائق لا عرض خيال وقد دل هذا العمل على جرأة تيمور (محمد) وشجاعته في الافصاح عن رأيه لأننا لا نبالغ اذا قلنا انه أول من كتب للمسرح الجدي روايات فنية باللغة العامية » .

وقد اتبع محمد تيمور في مقدمة هذه القصة (في القطار) طريقة المعلوطي في الحديث عن نفسه بصفاته الشخصية المعروفة وادخل نفسه فيها بطلا ثانيا، ولم يعمل هذا في بقية القصص حتى في القصة التي ساقها بضمير المتكلم وهي التي حمل عنوانها نفسه (الـ ..) منزل رقم ٢٢ ، اذ جرد من شخصيته بطلا آخر اسمه «حسن» لا نجد فيه من المؤلف شيئا على مقتضى فنية القصة الموضوعية الحديثة.

على أننا نرى المقدمة منسجمة ودخيلة على بناء القصة الذي يبدأ بمشهد الجالسين في القطار والمشهد نفسه هو كل القصة ذات الوحدة في الحدث والموضوع .

ووصف الشخصيات في القصة يشبه تنسيقات المؤلف المسرحي من حيث انه يقدمهم لنا بوصف خارجي قبل أن يأخذ في سرد الحديث وهي الحوار ، وقد اتبع هذه الطريقة بشكل أوضح في قصة (حفلة طرب) اذ يقدم لنا المغنية وافراد تختها واحدا واحدا بتلك الطريقة الوصفية دون أن يخلل هذا الوصف أي نمو للحادث .

والواقع ان الحوار في القصة الاولى — في القطار — متمم لرسم الشخصيات بل هو أهم من الوصف الخارجي لما فيه من دلالات اجتماعية ونفسية . وهي قدرة اكتسبها الكاتب من مرانه وخبرته في التأليف المسرحي .

وليست قصة في القطار أحسن قصص محمد تيمور بل لعلها من أضعفها ، انما اهتمامنا بها يرجع الى انها أول قصة قصيرة كتبها وهي كذلك أول قصة قصيرة فنية في أدبنا كما تقدم .

والقصة الثانية « حفلة (الـ ..) منزل رقم ٢٢ » من أحسن القصص ، تصور هذه القصة نموذجا من موظفي الحكومة وأمثالهم في ذلك الزمان يسخن الواحد منهم روحته في المنزل ويحول في الخارج » في الحانات والمواخير وبيوت الفسق والدعارة » والراوي (البطل الثاني) تتفق معه في ذلك وان كان يختلف عنه

في امر آخر كما يقول . وانا ابحث عن المرأة في كل مكان فلا فرق بيني وبينه الا انه متزوج وانا اعزب ولكن الفرق ليس بالكبير لانه لا يرى امرأته الا ست ساعات في كل يوم بقصيها وهو مستلق على ظهره يحوارها بعط في نومه فأمراته في نظره كالوسادة في نظري ، فنحن اذا في مستوى واحد) .

ويعتقد امين (البطل الاول) ان كل النساء خائنات ، ولكنه يقول لرمله (حسن) ولكن امراتي يا صاح في مأمن من كل ذلك لانها تعيش مع امي ، وامي من النساء اللواتي لا تطلع معهن شمسه ولا رجاء » .

وفي مغامرة مجونية يكتشف حسن أن شريكته في المغامرة هي زوجة رمله امين ..

لقد اصبح مثل هذا الخائن مطروقا في القصص كثيرا وقد طرق من قبل في قصص كثيرة قديمة كقصص الف ليلة وليلة وقصص (بوكاشيو) ولكن محمد تيمور كان أول من تناوله عندنا التناول الواقعي وصور من خلاله شخصيات حية وبث فيه ما قصد اليه من دلالات اجتماعية .

ومن مجموعة قصص « ما تراه العيون » قصة تصور صبيا يتيما يحاول ان يتغلب على حرمانه ويلهو مع الصبيان يوم العيد ، وهي قصة « صغارة العيد » يحدثنا فيها عن اليتيم حديثا واقعيا ولم يلجأ فيه الى العاطفة مباشرة لاستدرار الدموع على اليتيم كما فعل المنفلوطي مثلا في قصته (اليتيم) بل راح يقص ويصور لعب الاولاد في جو مرح تتخلله سحابة رقيقة من الحزن نلمحها لمحا من خلال الحادث والوصف .

ويبدو في هذه القصة اثر نشأة المؤلف في قصر كبير يحي شعبي يمج بالفقراء الى جانب اصحاب القصر ، فالقصر كما يقول « لاحد الباشوات الذين اثروا ان يهجروا الحي الذي نشأ فيه احفادهم ، وهو قصر كما قلنا عظيم يجلس على بابه الخصي واسمه رجلا على رجل وممسكا بسبحة يستعين بها على قتل الوقت حتى لا يشعر بالسام والملل . وهو شيخ في الخامسة والخمسين من عمره له شعاء بشعه قطع « البقتيك » التي تقدم لك في مطاعم العاصمة وعلى برداد احمر زاهما كلف ، احدثه الطلاقة) فيطق باسم الله العظيم وانف اعطس كانه صفدعة وحدق في وجه الخصي مستا حسنا . وكان طويل القامة ضخم الجثة اذا مشى اهتز كما يهتز الفيل » .

وهذا الوصف الدقيق يدل على ميل المؤلف الشديد الى تقديم شخصيات محلية مرسومة بدقة ومهارة . وان كانت علاقة (الخصي) بالقصة لا تزيد على انه يجلس امام القصر في الحارة التي يجري فيها الحادث يرقب المارة ويبدو منه بعض الحركات الدالة على نفسيته .

وبين قصص المجموعة قصة بعنوان « ربي لم خلقت هذا النعيم » . قدمت بالعبارة الآتية في الكتاب وفي جريدة السفور عندما نشرت بها أولا .

« هذه القصة لموبسان الكاتب الفرنسي الشهير نقل المعرب اشخاصها ورمانها

المعرب فى ذلك خطة تولستوى فى قصصه التى نقلها عن موبسان » .

ولا شك ان كثيرا من الكتاب فى مصر كانوا يعجبون هذا الصنيع دون ان يصرحوا هذه الصراحة المحمودة ولم نعرف عن تولستوى تلك الخطة . والظاهر ان بيمور اراد ان يبرر عمله بذكر نظير له شأن كبير ولم يكن فى حاجة الى ذلك فان العمل لا عار عليه الا اذا كان فى الخفاء ، اما هو فقد أعلنه واسمى نفسه (المعرب) .

والقصة تحكى عن رجل غنى متدين أعطاه الكاتب سمات مصرية اسلامية له بنت جميلة فاراد ان يروجها شاب من « الشبان الاغنياء المتعلمين الذين يتطلعون لهذا الزواج المبارك » لكن الفتاة رفضت وأعلنت انها لا ترغب فى الزواج وأصر الوالد وبكت الفتاة « وحرت لها امها وحاولت ان تعرف سر امرها ، لكن الابنة لاذت بالصمت حتى كانت ليلة أرق فيها الاب فخرج الى حديقة المنزل يتمشى ، فراعه جمال القمر وهو ينصب اشعته على الاشجار والازهار وراح يسائل نفسه « ربى لم خلقت هذا النعيم » ولمح شبحين فى الحديقة تبين فيهما ابنته وشابا جميل الصور ، دون أن يراهما ، وسمعه يقول لها « انا مرغم على تركك يا حبيبتى وانى اقسم لك انى سابقى على عهد حتى الظاهر الشريف الى ان يضم عظامى القبر » .

وقال الرجل لنفسه بعد ان فكر قليلا فيما رآه وفيما سمعه « ربى لم خلقت هذا النعيم للمحبين ولعمرى ما ذلك الا جنة الحب » .

وبقصة موبسان المصرة هنا هى قصة « ضوء القمر » المشهورة ، وموبسان قصة اخرى صور فيها تأثير القمر تصويرا مختلفا اذ جعل جمال القمر يبعث فى النفوس أحاسيس جنسية .

ومحمد تيمور متأثر بموباسان فى قصصه القصيرة ، ومن اوجه هذا التأثر تقديسه فى حكايا العرائر والميول وتصحيها بطريقة تحليلية بعيدة عن الخطابة واظهر مثال لهذا قصة « كان طفلا فصار شابا » وقد صور فيها أحاسيس مربية نحو الطفل الذى تولت تربيته حتى كبر ، ويلخص الكاتب الموقف بهذا الكلام « لقد كان طفلا جميلا فكانت تحنو مربيته كام حنون والآن صار شابا جميلا فأحبته مربيته كعشيقة صرم الحب انفاسها » .

وقد كتب محمد تيمور مقالات قصصية صغيرة اطلق عليها « خواطر » والحقت بمجموعة « ماتراه العيون » ونرى فى كل من هذه الخواطر بذرة تصلح لانبانها قصة ممتازة فيها اللحظة الشعورية أو الفكرة التى تنبع منها القصة القصيرة ولكنه يسوقها كشىء عرض له شخصيا ويعلق على الحادثة بما يقصد منها والحادثة نفسها باطلة بالمقصود .

وفى احدى هذه الخواطر ـ وهى « سارق وسارق »

نرى الكاتب يتبع طريقة المقارنة وهى طريقة ناجحة فى القصص القصيرة بين السارق الحقيقى وبين المتهم المظلوم . وهو يستخدم هذه الطريقة فى معظم الخواطر

في « زنان بي شوهر » سلب قوى التي يستعد بطريقه تاسيس اسرته ، وسيح منهدم صديقه يسيح الفعل قد « هو عليه ان يبدد بدده السؤال مستعد للعمل مفضلا الموت على الجبن » .

وفي « لبن القهوة وليس بالتراب » يلون بين نفسه وقد خرج عازفا من شرب القهوة بالليرة وبين طفلين رآهما في الشارع يلعقان لبنا بالتراب افسك من بائع .

واكثر هذه الخواطر مقارنات بين حياة المترفين وبين الفقراء المحتاجين ويقارن في بعضها بين التخلف الاجتماعي في مصر اذ ذاك وبين ما شاهده في اوروبا من تقدم .

ولعله محمد تيمور عربية سليمة وهو من القصصيين القليين الاوائل عندما الذين كتبوا بعربية سليمة ، ففي القصص القصيرة التي كتبها المعاصرون لتيمور وابناء مدرسته كثير جدا من الاخطاء اللغوية والركاكة في الاسلوب ولا اشك في ان هذا من الاسباب التي كانت تحمل الادباء الآخرين غير القصصيين والذين تمكن حب اللغة العربية من نفوسهم يتطرون شذرا الى هذه القصص ويأبون عليها الدخول من باب الادب .

وقد نقد بعضهم المتفلوطي في اللغة على سبيل التحدي ، ولكنهم لم يجدوا في القصص الحديثة ما يدعوهم الى ان يعيروها اي اهتمام او التفات .

على ان محمد تيمور لم يكن مع قدرته على التعبير العربي الفصيح السليم من الكتاب الاسلوبيين الجماليين ، بل هو منطلق في تعبيره يستخدم اللغة كاداة في التعبير عما يريد ، لا يعبأ برنين الكلمات وايقاع الجمل ، وقد استعمل الالفاظ العامة والاجنبية . حيث لا تفي الكلمة الفصحى بالدلالة المطلوبة وخاصة في الحوار ، وكان من رأيه ان الكلمة الاجنبية متى صقلت عن السنتنا أصبحت كالعربية ولا باس من استعمالها . كتب في مقال « ... على اني لا اريد ان ناتي استعمال اللفظ الافرنجي اذا صقله اللسان . وفي القرآن دليل ساطع على صحة قول اذ فيه من الالفاظ الفارسية ما يسوغ استعمال اللفظ الافرنجي »

وتمكن محمد تيمور من اللغة العربية يرجع الى بيئته المترفة والى شغفه بالشعر العربي وحفظ قصائده ومعلقاته ، ثم نظم الشعر وما تطلبه من دقة لغوية والى اهتمامه بدراسة اللغة العربية وادبها على وجه عام .

ولم تتيسر دراسة اللغة العربية وادبها لمعظم روادنا في القصة الصيحة كما تيسرت لمحمد تيمور وشقيقه محمود .

وبعد فقد كانت قصص محمد تيمور القصيرة اول الغيث الذي لم يدعه الموت يمهر ، ولكنه مع هذا نزل في ارض خصبة استنبتها نباتا حسنا .

وهذه هي قصة من الوطن العربي

في القطار

للمرحوم محمد تيمور

« صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته ، ويرد للشيخ شبابه ونعيم طفل يتمشى الاقدمة . ويسرى عن النفس همومها ، وفى الحديقة تتمايل الاشجار نشوة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح . والناس تسير في الطرق وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل ، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة ، وأسائل نفسى عن سر اكتئابها فلا اهتدى لشيء .

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة ، فلم انجح ، فالقيت به على الكرسي وجلست على مقعد ، واستسلمت للتفكير كأني فريسة بين مخالب الدهر

مكثت حينا أفكر ثم نهضت واقفا ، وتناولت عصاى وغادرت منزل وسرت وأنا لا أعلم الى اى مكان تقودنى قدماى الى أن وصلت الى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكرا ثم اهتديت للسفر ترويحا للنفس — وانتصف تذكرة ، وركبت القطار للصعيد لاقضى فيها نهارى باكمله

وجلست فى احدى عرف القطار بجوار النافذة ، ولم يكن بها احد سواى وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد ينادى فى أدنى (وادى النيل . الاهرام . المقطم) فابتعت احداها وهممت بالقراءة واذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين أسمر اللون طويل القامة ، نحيف القوام ، كث اللحية له عينان أقبل احمرتهما الكحل فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد . وجلس الاستاذ غير بعيد عنى ، وخلع مركوبه الاحمر قبل ان يتربع على المقعد ثم نهض على الارض ثلاثا ماسحا شفته بمنديل احمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير — ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبى والصحابة والاولياء الصالحين . فجعلت انظر اليه فاذا بى ارى فى الغرفة شبابا لا أدرى من أين دخل علينا . وأمل انشغالى برؤية الاستاذ معنى ان أرى الشاب ساعة دخوله .

نظرت الى الفتى وتبادر الى ذهنى انه طالب ربما انتهى من تأدية امتحانه ، وهو يعود الى صيحته لقضى اجازته بين أهله وقومه . نظرت الى الشاب كما نظر الى ثم اخرج من حافظته رواية من روايات سامرات الشعب وهم بالقراءة بعد ان حول نظره عنى وعن الاستاذ . ونظرت الى الساعة راجيا ان يتحرك القطار قبل ان يواتينا مسافر رابع فاذا بالفتى وصاح الطاعة خلس الهندام دخل غرفتنا وهو يتحدث فى مسبحته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والبرتقال . جلس الافندى وهو يتبسم واضعا رجل على رجل بعد ان قرأنا السلام فرددناه رد الغريب على الغريب .

وساد السكون فى الغرفة والتلميذ يقرأ روايته والاستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود والافندى ينظر للاستاذ طورا وللمسافرين تارة أخرى وانا اقرأ وادى النيل منتظرا ان يتحرك القطار قبل ان يواتينا مسافر خامس .

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ

يبلغ السنين أحمر الوجه براق العينين يدل لون بشرته على أنه شركسي الاصل وكان ممسكا مطلة اكل عليها الدهر وشرب . اما حافة طربوشه فكانت تصل الى اطراف اذنيه . وجلس أمامي وهو يتفرس في وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون والى أين هم ذاهبون ثم سمعنا صفير القطار ينبيء الناس بالمسير وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه الى حيث هم قاصدون .

سافر القطار وبحن جلوس لا نسمع بيننا شفة كأنما على رؤوسنا الطير حتى اقترب من محطة شبرا فاذا بالشركسي يحملق في ثم قال موجها كلامه الي :

هل من أخبار جديدة يا افندي ؟

فقلت وانا ممسك الجريدة بيدي ـ ليس في أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم الا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية .

ولم يمهلني الرجل ان اتم كلامي لانه اختطف الجريدة من يدي دون ان يستأذنني ـ وانتدأ بالقراءة ما يقع تحت عينيه ، ولم يدهشني ما فعل لاني اعلم الناس بحدة الشراكسة . وبعد قليل وصل محطة شبرا وصعد منها احد عمد القليوبية . وهو رجل ضخم الجثة كبير الشارب اعطس الآنف له وجه به آثار الجدري تظهر عليه مظاهر القوة والجهل ـ جلس العمدة بجواري بعد ان قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبي ثم سار القطار قاصدا قليوب .

مكث الشركسي قليلا يقرأ الجريدة ، ثم تواها والقى بها على الارض وهو يحترق من الألم وقال :

ـ يريدون تعميم التعليم ومحاربة الامية حتى يرتقي الفلاح الى مصاف السيادة .وقد جهلوا انهم يجنون جناية كبرى .

فالتقطت الجريدة من الارض وقلت :

ـ واية جناية ؟

ـ انك ما زلت شابا لا تعرف الفلاح الناجع لتربيه الفلاح .

ـ واي فلاح تقصد ؟ وهل من فلاح انجع من التعليم ؟

فغضب الشركسي حاجبيه وقال بلهجة الغاضب :

ـ هناك فلاح آخر .

ـ وما هو ؟

فصاح بمل فيه صيحة افاق لها الاسماك من نومه وقال :

ـ السوط . ان السوط لا يكلف الحكومة شيئا اما التعليم فيتطلب اموالا طائلة ولا تنس ان الفلاح لا يذعن الا للضرب لانه اعتاده من المهد الى اللحد .

واردت ان اجيب الشركسي ولكن العمدة حفظه الله كفاني مؤونة الرد فقال للشركسي وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ صدقت يا بيه صدقت ـ ولو كنت تسكن الصعايد مثلنا لقلت اكثر من ذلك . انا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه ، ونمنعه من ارتكاب الجرائم .

فنظر اليه الشركسي نظرة ارتياب وقال :

ـ حضرتكم تسكنون الارياف ؟

ـ انا مولود بها يا بيه

ـ ماشاء الله

جرى هذا الحديث والاستاذ يعط في نومه والافندي ذو الهندام الحسن ينظر للاستاذ ثم ينظر لنا ويضحك اما التلميذ فكانت على وجهه سيما الاشمئزاز ولقد هم بالكلام مرارا فلم يطاوعه الا حياؤه وصغر سنه ولم اطق سكوتا على ما فاه به الشركسي فقلت له

ـ افلاح يا بيه انسان مثلنا وحرام الا يحسن الانسان معاملة اخيه الانسان .

فالتفت الي العمدة كأني وجهت الكلام اليه وقال

ـ انا اعلم الناس بالفلاح ولي الشرف ان اكون عمدة في بلد به الف رجل وان شئت ان تقف على شئون الفلاح اجيبك ان الفلاح يا حضرة الافندي لا يفلح معه الا الضرب ولقد صدق البك فيما قال . واشار بيده الى الشركسي

ـ ولا يسئلك مثل خبير .

فاستنشاط التلميذ غضبا ولم يطق السكوت وقال وهو يرتجف

ـ الفلاح يا حضرة العمدة ...

فقاطعه العمدة قائلا

ـ قل يا سعادة البك لاني جربت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة

قال التلميذ

ـ الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لاوامركم الا بالضرب لانكم لم تعودوه غير ذلك فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه اخا يتكاتف معكم ويعاونكم ولكنكم مع الاسف اسأتم اليه فعمد الى الاضرار بكم تخلصا من اساءتكم . وانه ليدهشني ان تكون فلاحا وتحيى باللائمة على اخوانك الفلاحين .

فهز العمدة راسه ونظر الى الشركسي وقال :

ـ هذه هي نتائج التعليم

فقال الشركسي :

ـ نام وقام فوجد نفسه بالله مقام .

اما الافندي ذو الهندام الحسن فانه قهقه ضاحكا وصفق بيده وقال للتلميذ

ـ برافو يا افندي ، برافو ، برافو ...

ونظر اليه الشركسي وقد انتفخت اوداجه وتحمر عليه النفس وقال :

ـ ومن تكون انت ؟

ـ ابن الحظ والأنس يا انس .

وقهقه عدة ضحكات متوالية .

ولم يبق فى نفس الشركسى متسع من الوقت وهو يحملق على الارض طورا وعلى الاستاذ وعلى حذاء العمدة تارة .

ـ ادسيس فلاح .

ثم سكت وسكت الحاضرون ، وأوشكت ان تبدأ العاصفة لولا ان التفت العمدة الى الاستاذ وقال :

ـ انت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا فى هذه القضية . فهز الاستاذ رأسه وتنحنح ويصق على الارض وقال :

ـ وما هى القضية لأحكم فيها باذن الله جل وعلا ؟

ـ هل التعليم المفيد للفلاح أم الضرب ؟

فقال الاستاذ :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ انا فتحنا لك فتحا مبينا . قال النبى عليه الصلاة والسلام لاتعلموا أولاد السفلة العلم

وعاد الاستاذ الى حموله وأطبق اجفانه مستسلما للذهول فصاح به التلميذ وهو يقول :

ـ حرام عليك يا استاذ . ان بين الغنى والفقير من هو على خلق عظيم كما ان بينهم من هو فى الدرك الاسفل

فأفاق الاستاذ من غشيته وقال :

ـ واحسرتاه . انكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم اخلاقكم وتسيتم اوامر دينكم ومنكم من تجحد ربه واستكبر وانكر وجود الخالق

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله ياأستاذ) وقال الشركسى

ـ كان الولد يخاف ان يأكل مع ابيه واليوم يشتمه ويهم بضربه

وقال العمدة :

ـ كان الولد لا يرى وجه عمه والآن يجالس امرأة اخيه

ووقف القطار فى قلوب فقرات الجميع السلام وغادرتهم وسرت فى طريقى الى الضيعة وانا اكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما تصيح فى أذنى من صدى الحديث